ذاكرة امرأة عراقية

تفتح صفحة قضايا عراقية ، نافذة لذاكرة المرأة العراقية المناضلة كي تكتب تاريخ وقفتها المشهودة والنادرة في تاريخ النضال السياسي للشعب العراقي بكل تياراته السياسية والفكرية التي قارعت حكم الطاغية وقدمت المرأة العراقية على مذبح حريتها ثمناً باهظاً شهيدة وسجينة ومنفية ، نساء من طراز خاص تحدين إرهاب الدولة وصرخن عالياً بـ(يعيش العراق) وهن متوجهات إلى ساحة الاعدام أو حبل المشنقة ، وتحملن كل عسف وألم زنزانات النظام المقبور. امراة عراقية أخفت زوجها وأبنها واخاها وحبيبها بل وجارها ، عن أعين فئران الزيتوني البؤساء هذه المرأة مطلوب منها ان تكتب هذا التاريخ الحقيق للمرأة العراقية لا تاريخ اتحاد النساء وحفلات نادي الصيد! قضايا عراقية تفتح هذه النافذة.

(ميادة بنت العراق) كتاب يفضح أساليب تعذيب النسوة العراقيات في دهاليز الأمن العراقي

هذا ما فعلوه بحفيدة ساطع الحصري وجعفر العسكري ورفيقاتها!

اعداد/المدى

(ميادة ابنة العراق) كتاب للكاتبة البريطانية (جين ساسون) صدر عام ٢٠٠٣ وترجم الى اللغة الالمانية تحت العنوان نفسه. تتعرض فيه الكاتبة الى اصناف التعذيب الذي تعرضت له مجموعة من النسوة العراقيات ، ومن خلال لقاءات مباشرة مع من نجون من صناديق الموت في اجهزة الأمن الدموية.

(المدى) أعدت هذه المادة المقتطعة من الكتاب لصتنيفه الى سلسلة (ذاكرة امرأة عراقية") توافقا مع جلسات محاكمة صدام واعوانه عن جرائمهم التي ارتكبوها بحق الشعب العراقي.

اقام صدام حسين في العراق نظاما دكتاتوريا يتميز بالقسوة والشراسة والسادية الدموية، نظاما لا يميز بين الشيخ والصبي، وبين المرأة والرجل، وبين المريض والناصح في التصدي لمن يشعر بانه يشكل بهذا القدر أو ذاك خطرا عليه. وفي المقابل سكت العالم عن كل ما كان يعرفه من ممارسات اجرامية لهذا النظام سكوت ابي الهول، ولهذا السبب ايضا تمكن النظام من البقاء فترة طويلة في الحكم. وبقى المجتمع العراقي في حينها والى حين سقوطه يعاني من قسوة النظام وجلاوزته ومن سياساته وعقوباته ونشاط اجهزته الامنية العديدة. والنسوة في العاق عانين من طبيعة ها النظام ومن سياساته باتجاهات عديدة، فقد فقدن اقرباؤهن في الحروب الداخلية والخارجية وفي السجون والمعتقلات وحرمن من حقوقهن المشروعة وجرى التجاوز حتى على حقوقهن التي ضمنها الدستور المؤقت للنظام. كما واجهن غضب النظام وقمعه الشرس بشكل مباشر عبر الملاحقة والاعتقال والتعذيب والسجن دون محاكمة والاغتصاب الجنسي والقتل تحت التعذيب أو الاعدام بمختلف الاساليب.

لقد فقدت المرأة حقوقها التي تمتعت بها في ظل العهود والحكومات السابقة، وخاصة تلك الحقوق البسيطة التي منحتها لها ثورة تموز ١٩٥٨ واصبحت من جديد تعاني من ويلات اضطهاد الرجل في البيت والذكور في المجتمع عموما ومن الدولة بقوانينها وعقوباتها وسلبها كامل شخصيتها تقريبا.

ولم تختلف أساليب التعذيب التي كانت تمارس ضد النساء عن تلك التي مورست ضد الرجال، فكن في هذا الامر سواسية، الا ان ما كان يصيبهن وهن حوامل مثلا يفوق ما كان يصيب الرجل، اذ غالبا ما كن يفقدن بسبب التعذيب أو يقتلن وفي بطونهن حملهن أو يلدن وهن في السجن ثم تتم مصادرة اطفالهن أو حتى يقتلون.

نشرت الكاتبة البريطانية جين ساسون في عام ٢٠٠٣ كتابا جديدا باللغة الانجليزية ثم ترجم في العام نفسه الى اللغة الالمانية.

ميادة ابنة العراق

يحكي هذا الكتاب قصة حياة سيدة عراقية من عائلة عراقية معروفة هي ميادة نزار جعفر مصطفى العسكري. حفيدة الشخصية القومية العربية المعروفة ساطع الحصري من جانب الأم (سلوى الحصري). وحفيدة القائد العسكري العراقي ووزير دفاع أسبق في العهد الملكي جعفر مصطفي العسكري من جانب الأب (نزار العسكري) وفي هذا الكتاب تسجل الكاتبة البريطانية لوحة مريعة ومحزنة جداً لواقع النظام العراقي في فترة حكم صدام حسين وتضع القارئة والقارئ في صورة واقعية. ولكنها جزئية. لمعاناة النسوة في بعض معتقلات النظام العراقي وخارجه وعن جملة من أساليب التعذيب التي مورست ضدهن في معتقلات مديرية الأمن العامة (البلديات) في بغداد على أيدي جلاوزة النظام. كما تقدم لوحة صادقة عن سلوكيات بعض أبرز مسؤولي النظام وأجهزته الأمنية. وضعت السيدة ميادة العسكري في الزنزانة رقم ٥٢ الخاصة بالنساء. كانت الزنزانة قد صممت لتتسع لثمانية أشخاص في الحد الأقصى. ولكن وجدت نفسها مع سبع عشرة امرأة. تفوح من هذه الزنزانة رائحة العفونة والبول والرطوبة وبرودة الأرضية الكونكريتية المسلحة. ثماني عشرة امرأة: سمارا وعلياء ورشا ورولا وإيمان وصباح ومنى وسفانة وسارا وجميلة وحياة وآسيا وآمان ومي وأماني وأنوار ووفاء وميادة.

ليس بينهن سوى ثلاث نساء اتهمن بهذا القدر أو ذاك بالسياسة. إحداهن بعثية وأخرى متهمة بقربها من الشيوعيين وثالثة اعتقلت لأن زوجها وابنها هربا إلى تركيا خشية الاعتقال بسبب اتهامهما بالعمل مع الأحزاب الإسلامية السياسية الشيعية. أما ميادة فاتهمت في احتمال استخدام أحد العاملين لديها جهاز الاستنساخ في مكتبها في استنساخ بعض البيانات لقوى دينية شيعية. أما البقية فالاتهامات الموجهة لهن أما السفر بجواز سفر مزور أو فقدانهن جواز سفرهن واستخدامه من أخريات للسفر إلى خارج العراق أو حصول سرقة في الدائرة التي يعملن بها أو تلاعب مديرهن بحسابات البنك الذي كن يعملن به ...الخ.

جميع النسوة المعتقلات في الزنزانة رقم ٥٢ تعرضن للتعذيب الشرس يومياً تقريباً وبالتناوب لانتزاع اعتراف منهن بأنهن مشاركات في التهم الموجهة إليهن دون أن تكون التهم الموجهة لأغلبهن. إن لم نقل لجميعهن. صحيحة أو مستندة إلى وثائق دامغة. إذ لم يكن هناك تحقيق سليم من الناحية القانونية. كما لم يكن التحقيق سوى عملية تعذيب وإهانة واستباحة. وخلال عملية التعذيب تطرح الأسئلة من الجلادين أنفسهم. بعض النسوة قضين ثلاث سنوات مثلاً وانتقلن من معتقل إلى آخر إلى أن حط الرحال بهن في الزنزانة رقم ٥٢ وعانين من التعذيب بمختلف صوره وأشكاله في كل تلك المعتقلات. ولكن قمة العذاب كانت في معتقل الأمن العامة في البلديات. أغلب النساء المعتقلات

ما هي قصة الزنزانة ٥٢ ، في الامن العام ؟

ضابط يقول لمعتقل بعد اغتصابه ، ريح نفسك ، انت الان امراة لثلاثة رجال ويجب ان تكون من الان طوع ارادتنا

كن من أتباع المذهب الشيعي. في حين تتبع ميادة المذهب السني.

تصف الكاتبة البريطانية وصفاً دقيقاً حالات من التعذيب الذي تعرضت له سارا مرة وسفانة مرة أخرى أو سمارا أو منى أو جميلة أو ميادة أو غيرهن من المعتقلات. كما كانت تنقل عن ميادة وصفها لحالة المعتقلين الآخرين من الرجال والنساء في الزنازين المجاورة. ففي نهاية الفصل الموسوم "جدو ساطع" الحصري. نقلاً عن ميادة العسكري. تشير الكاتبة ساسون إلى المعتقل أحمد فهو احد المعارضة المتهم بالوهابية. والذي كان يؤذن في الصباح الباكر أو يتلو آيات من القرآن بصوت مرتفع يصل عبر الجدار العازل بين زنزانته وزنزانة النساء فتقول:

"من خلال الجدار كان بامكانهن سماع صوت الشاب المتدين وهو يدعو إلى الصلاة بصوت مرتفع. وفجأة تحولت صلاته إلى صراخ. بلغت حد التوتر العصبي لدى ميادة إلى الحد الذي قفزت من مكانها وتشبثت بذراعي سمارا وصرخت مرعوبة: "إنهم يقتلونه! إنهم يقتلونه!"

ردت عليها سمارا بصوت منخفض قائلة: كلا. ولكن ما يفعلونه به هو أبشع من الموت.

لم تفهم ميادة ما كانت تعنيه سمارا. إلى أن سمعت. كيف كان الرجال يسحبون أحمد إلى الممر حتى يصلوا به بشكل متعمد أمام مدخل زنزانة النساء. وبدأوا باغتصابه واحداً بعد الآخر. كانت ميادة في حالة ارتعاب. الاغتصاب البهيمي استمر نحوساعة واحدة. ثم سمعت ميادة. كيف كان أحد الحراس يضحك وهو يقول لأحمد: " ريح نفسك. أنت الآن امرأة لثلاثة رجال ويجب أن تكون منذ الآن طوع إرادتنا".

وفي الفصل الموسوم ب"التعذيب" تصف الكاتبة نقلاً عن ميادة حالة الزنزانة والنسوة المعتقلات وأساليب التعذيب التي كن يتعرضن لها يومياً. سواء أكان ذلك في الصباح أم في الليل. رغم أن عمليات التعذيب كانت تتم في غرفة التعذيب الخاصة ليلاً. مورس في الغرفة المهيأة لأغراض التعذيب من قبل جلادين ضخاماً غلاظ النفوس وبليدي الإحساس. قساة لا تعرف الرحمة طريقها إلى قلوبهم. يتلذذون ويقهقهون ويتندرون في ما بينهم وهم يمارسون الأساليب التي تؤدي إلى إصابة المرأة المعتقلة بالرعب والخوف والتشنجات العصبية بسبب عذابات التعذيب أو خشية الموت تحت التعذيب. كان الضرب المبرح بالسياط على الظهور أو الضرب بالعصي والسياط على باطن الأقدام أو الضرب العشوائي في كل مكان من أنحاء الجسم. وخاصة على العمود الفقري والرقبة. أو التعليق والضرب وتقييد الأيدي أو استخدام التيار الكهربائي على المواقع الحساسة من جسم المرأة وإنزال الصعقات التي تعرض الضحية إلى شتى أشكال العذاب والاقتراب من الغيبوبة أو السقوط بها فعلاً. كان التعذيب عادة يومية لا مناص منها. ولكنها كانت تتباين في من يسحب للتحقيق أو لمجرد التعذيب والتلذذ به. يجري التعذيب في أحيان غير قليلة والمرأة عارية تماماً بهدف اذلالها أو التمتع الجنسي السادي بعذاباتها وهدر كرامتها أو بعض الأحيان اغتصابها دون أن تجرأ المرأة المغتصبة جنسياً التحدث بذلك أو حتى دون أن تجرا الأخريات من النسوة الاستفسار عن ذلك. ولكن كل الدلائل كانت تشير إلى احتمال كبير بحصول ذلك. وتحت سياط التعذيب سقطت جميلة جثة هامدة. كان فرك أعقاب السجائر المشتعلة في جسم الضحية. على الثديين والحلمة وفي البطن والظهر والساقين والمؤخرة حالة اعتيادية في عمليات التعذيب. وكان التعذيب يمارس بسبب اعتياد الجلادين على ممارسته دون الرغبة في الحصول على معلومات. إذ كان الجلادون يدركون أن ليست هناك معلومات يمكن الحصول عليها أو يمكنهن الإدلاء بها.

وتصف ميادة عبر الكاتبة البريطانية ما حصل لهن جميعاً حين جاء الجلادون واقتادوهن واحدة تلو الأخرى وبحركة سريعة جنوبية صوب غرفة التعذيب والصراخ يملأ الممر والقاعة التي وضعوا فيها وكيف بدأ التهديد بإطلاق العيارات النارية وكأن هناك من يريد قتلهن جميعاً. كانت الصورة مأساوية وكان الرعب قد سيطر على كل النسوة دون استثناء وكان صراخهن يعم القاعة وكانت قهقهات وزعيق الشرطة السرية المكلفة بحراستهن وتعذيبهن والتحقيق معهن يعلو كل الأصوات. كن قد تدافعن واصطدمت الواحدة بالأخرى في غرفة مظلمة لا يعرفن أين وماذا يراد بهن. ثم تم دفعهن إلى مؤخرة القاعة حيث فرض عليهن الوقوف جنباً إلى جنب ووجوههن صوب الحائط. ثم بدأت الشرطة بتهيئة البنادق الرشاشة وكأنهم يريدون رمي النساء. أيقن النسوة بأنهن يعشن آخر لحظات حياتهن. فبدأ بعضهن بالصلاة والدعاء وبعضهن الأخر يفكر بما ترك خلفه من أطفال وأمهات كبيرات السن...الخ. وبعد عدة ساعات من هذا النمط من التعذيب النفسي والجسدي أعدن إلى زنزانتهن وهن اقرب إلى الغيبوبة والموت منهن إلى الحياة. هكذا كانت رغبة الجلادين في أن يتمتعوا بتعذيب النسوة على هذه الطريقة. إذ لم يكن لهم ما يقومون به غير ذلك النوع من العمل غير الإنساني والبشع.

لم يكن النظام العراقي قد عرض النسوة إلى التعذيب تماماً كما كان يحصل للرجل ويزيد عن ذلك. بل كان قد بدأ بقطع رؤوسهن بحجة العهر والرذيلة. في حين كان النظام نفسه يغوص في العهر السياسي والرذيلة الفعلية واغتصاب النساء والرجال على حد سواء.

عنف يجري في المجتمع العراقي عن طريق الكلام الجارح!

اراء ووجهات نظر

بغداد / علي المالكي

يكشف تبادل الشتائم بين الافراد/ ثقافة المجتمع الذي ينتمون اليه، وطبيعة الثقافة والقيم السائدة فيه، وهو ظاهرة عالمية وإذا كان البعض يرى في تبادل الشتائم، آليه نفسية للتعبير عن الذات، والانفعالات للدفاع ، أو الهجوم فانها في المجتمعات المتخلفة وسيلة بائسة للتربية الاجتماعية الناقصة، وتعبير عن التوتر النفسي الذي يعاني منه الافراد في تلك المجتمعات، وضعف التوازن الانفعالي، ويرى المتخصصون في علم النفس في تبادل الشتائم نمطا من العنف اللفظي، الذي يمكن ان يتحول الى عنف جسدي.

شتائم التربية

ابان تقصينا لمشهد الشتائم في المجتمع العراقي، وجدنا انها تستخدم كوسيلة تربوية داخل البيت، وفي المدرسة والعمل، والمؤسسة العسكرية، وبالطبع فانها وسيلة تربوية خاطئة، لانها تنطوي على العنف الذي يولد ردود افعال مضادة وخصوصا عند الأطفال والمراهقين، فالاب يلوم الابن أو البنت، شاتما اياهما، واصفا اياهما بالغباء والكسل لانهما تاخرا في حل مسالة حسابية أو رياضية دون ان يجهد نفسه (قليلا) في اعادة توضيح المسألة وربما تلقى الصبي صفعة مع كلمة (غبي) أو (مطي) وصاحب الورشة يهين الحدث اليتيم الذي يعمل في ورشته، ليقذف في وجهه كلمة (حيوان) تاركا في ذاته جرحا نفسيا لانه اخطأ في تناول (المفتاح) الذي طلبه (الاستاد)، وكلمات مثل (قشمر، سختجي، ادب سرز، خبيث لغاف، لئيم، كلب، حيوان، مطي، اعمى، امطفي... الخ) يتداولها الافراد نساء ورجالا في اللحظات التي يقع فيها الابناء والبنات في اخطاء يمكن تصحيحها بطريقة أكثر تهذيبا من تلك الكلمات البذيئة والتي تخدش مشاعر الابناء، وما يحز في النفس لجوء المدرسين والمعلمين، ومن كلا الجنسين الى استخدام الالفاظ الخشنة (الشتائم) مع طلابهم وتلاميذهم وهذا خلل كبير في نظام التربية والتعليم، ومن المؤكد ان المدرس والمعلم الذي يستخدم الالفاظ الخشنة مع طلابه يحتاج الى اعادة تربية وتعليم وتاهيل قيمي، الكلام الفظ والجارح اعتداء لفظي يولد شعورا بالاهانة لدى الإنسان وكرها لمصدر الشتيمة حتى ولو كان احد الابوين، فما بالك بالاخرين؛ (....).

اصناف الشتائم

واضافة لشتائم التربية (الناقصة)، فلقد عثرنا على اصناف اخرى من الشتائم، والتي يستطيع المتخصصون في علم النفس وعلم الاجتماع بحثها ودراستها وتحليلها، فهناك شتائم المهن، والحرف وشتائم المقدسات الدينية، والشتائم السياسية وشتائم التشبيه بالحيوانات، ان وفرة القاموس اللغوي للشتائم في مجتمع ما يشير الى بنية آلية نفسية مختلة ويؤشر مستوى ثقافيا منخفضا لذلك المجتمع، فتبادل الشتائم بطريقة مجانية بين الافراد يؤكد الحاجة الكبيرة لاعادة الصحة النفسية للاوساط والشرائح التي تكثر من تعاطي الشتائم في التواصل بين افرادها.

التحديد العلمي

ومن اجل التحديد العلمي لظاهرة تبادل الشتائم ومشهدها في المجتمع العراقي توجهنا الى الاستاذ المساعد الدكتور صاحب الجنابي ليحدد لنا تصوره العلمي لهذه الظاهرة، بصفته متخصصا في الارشاد والصحة النفسيين فقال : " يجري في هذا السلوك استخدام الفاظ بالشتم والسب واطلاق الاسماء البذيئة، المغيظة للاخر، والتشاجر والتحقير، والتهديد بالايذاء البدني أو المادي أو نحوه، وهذا هو التعريف العلمي".

ويذهب البعض الى ان استخدام (العنف اللفظي) اصبح سمة، أو صفة يمارسها عدد غير قليل من الافراد، وفي اعمار وشرائح مجتمعية، أو مستويات ثقافية مختلفة، وربما يكون في هذا الاعتقاد شيء من الصحة، ذلك لان المجتمع العراقي عاش تحت وطأة ظروف غير طبيعية من النواحي النفسية والمادية والاجتماعية، مما ساعد على انتقال اثار ذلك على بعض سلوكيات الافراد، ومنها السلوك اللفظي، اضافة الى ان هناك اعداد غير قليلة من الافراد من الذين كتب عليهم ان يتسربوا من المؤسسة التربوية، ويصبحوا خارج سلطة التعليم، والالتحاق باعمال وحرف ومهن قد لا يكونون مهيئين لها من الناحية الأكاديمية والعمرية والثقافية.

اضف الى ذلك ضعف تأثير وسائل الإعلام المختلفة في تهذيب وتشذيب وتوجيه سلوكيات الافراد في مختلف الاعمار كما هو حاصل في المجتمعات المستقرة والمطمئنة، لذا نعتقد ان المسؤولية في العلاج لمثل هكذا سلوك هي مسؤولية تربوية، مجتمعية، اخلاقية، فكرية تضامنية يشترك فيها كل من الاباء والمربين والمؤسسات التربوية والاعلامية ومؤسسات المجتمع المدني، ودوائر رعاية وتأهيل الشباب على ان يكون منهجنا هو الاسلوب التربوي البالغ المرونة لان تغييرا أو تعديلا أو توجيها للسلوك - كما هو معروف- لا يمكن ان يتم الا بتضافر الجهود المخلصة المؤمنة بان سعادة الافراد والمجتمعات لا يمكن ان تكون الا على أساس الايمان، بان يبذل كل منهم ما في وسعه من خدمات للاخرين، والشعور بان سعادة الفرد انما تتم من خلال الاحساس بسعادة الآخرين.

التنشئة الاجتماعية

اما الدكتورة بهيجة احمد شهاب، فقد لخصت رايها بالقول " ان تبادل الشتائم والسباب، هو سلوك اجتماعي يظهر مع النشأة الاجتماعية، في البيئة التي يعيش فيها الإنسان فاذا كانت بيئة يستخدم فيها هذا الاسلوب (تبادل الشتائم) في الدفاع عن النفس، أو التعبير عن الانفعالات الذاتية التي تنشأ للتنفيس عن ذاتها، سيعبر الفرد عن ذاته وانفعالاته مدافعا بهذا الاسلوب غير الإنساني وغير اللائق، واما اذا نشأ في بيئة اجتماعية ثقافية متطورة فسوف يستخدم اسلوبا اخر لايقاف الجهة المعتدية عليه، وقد ينتقل الإنسان من بيئة الى اخرى، ويتثقف ويصبح انسانا ومثقفا، الا انه يعود الى التعبير عن ذاته وانفعالاته باسلوبه القديم الذي نشأ عليه منذ طفولته".

المرأة والشتائم

وسالنا القاصة مها عادل العزي، عن رأيها فيما اذا كانت المرأة أكثر استعمالا (للشتائم) من الرجل، فقالت: (المسالة باعتقادي نسبية، وتتوقف على ثقافة المرأة ومستواها الدراسي وبيئتها الاجتماعية، فهناك امرأة سليطة اللسان ولا تكف عن القدح بأخلاق وتصرفات زوجها لنقص في ثقافتها وتربيتها، بينما العكس حين تكون الزوجة متعلمة أو مثقفة ومهذبة على الاقل وكما قلت الامر يتوقف على المستوى الثقافي للرجل أو المرأة).

شتائم (الانكليزية)

وأكد الاستاذ الدكتور عمار صفاء الخزرجي، المتخصص باللغة الانكليزية والنقد الأدبي الحديث، اكد عالمية الظاهرة، حين تحدث لنا عن الشتائم في اللغة الانكليزية، فقال: " ان تبادل الشتائم ظاهرة موجودة في الثقافة الغربية بشكل كبير في ادب القرن العشرين وخصوصا في الرواية المكتوبة بالانكليزية الدارجة، أو العامية اذ لاحظنا كثرة الشتائم وذات الطابع الجنسي، وتسود هذه الظاهرة في الاوساط الاجتماعية متوسطة الثقافة وثمة تساؤل يظهر لنا كدارسي لغة وهو : هل ان هذه الالفاظ تشي عن رغبة جنسية كامنة في اللاوعي؟ ام انها نتيجة للانهيار الاخلاقي الحاصل في المجتمعات الغربية؟ كما لاحظنا ان الشتائم وتعاطيها اقل في المسرح واعتقد ان هذا بسبب العرض امام الجمهور".

ترجمة الشتائم

ولكن ماذا يقول المترجمون عن ترجمة الشتائم التلفزيونية أو التي ترد في النصوص الأدبية، الاستاذ المترجم مفيد الصافي قال " انا كمترجم للنص الانكليزي التزم بحرفية النص واصله. وبوجه عام نحن نعيش في مجتمع شرقي ونرفض استخدام هذا النمط من الكلام عرفيا قبل ان يكون دينياً".

اما المترجمة نرجس عبد الاحد فقد قالت " الحقيقة انا مهتمة جدا بالترجمة التلفزيونية واتابع معظم ما استطيع الوصول اليه من برامج وافلام مترجمة، وكثيرا ما تستوقفني ترجمة الشتائم الى لغة جافة، غير معبرة وبعيدة عن المعنى لانها لا تنقل بالصورة المثلى وهذا يحدث دائما للشتائم والسباب ودورها في أي فيلم أو مسلسل وحسب كل لقطة، ومع انه ينبغي مراعاة ذوق المجتمع المنقول له، الا ان من حقه ايضا ان يفهم معنى الشتائم المقصود ولا ينبغي نقل الشتيمة بابسط صورة ممكنة بل يجب البحث عن اقرب معنى قوي وثابت لها. وقد يخشى المترجم التلفزيوني من نقل كل شتيمة حسب ما هي خوفا على الذائقة العامة واحتراما للمشاهد والمتلقي، ولكني ارى ان لكل مجتمع قاموسه الواسع من السباب والشتائم، وبالتاكيد لا يتم استخدام هذا القاموس الا في حالات خاصة جداً".

شتائم الانترنت

لقد كان احد أسباب الاهتمام بتبادل الشتائم في المجتمع العراقي هو مقالة نشرت في احد المواقع العراقية على الانترنت : كرس كاتب المقال سطوره ليسب ويشتم كاتب عراقي يعيش في ألمانيا لم اسمع في يوم ما الى ما يلوث انتمائه لبلده وشعبه، وهذا فضلا عن أصحاب الدردشة الذين حولوا الانترنت الى مكان للشتيمة وتعاطيها، فهل تحول العراقيون بالشتائم من الشوارع والازقة ليملأوا بها سماء العراق عبر الانترنت؟

اعتقد ان الامر بحاجة الى بحوث ودراسات تحليلية تعالج تبادل الشتائم في المجتمع، وما هذه السطور سوى المدخل لرسائل واطروحات نفسية وسوسيولوجية سينهض بها الباحثون الشباب.

بين المدينة والريف

وكان للباحث والقاص خالد جمعة، رايه في المسألة قال الاستاذ خالد: " ان الشتيمة نتاج المدينة بفعل تحولاتها، في القرية الريفية، المجتمع مباشر، اما في المدينة فالمجتمع زائف لانها حولت السلعة من قيمتها الاستهلاكية الى قيمتها التبادلية وحتى في الأدب نجد في الروايات ان جغرافيا الريف تشير الى الطهارة والنقاء، واقعاً أو رمزاً والعكس بالنسبة لدلالة المدينة المدينة الملوثة بالنجاسات، ثم ان المدينة شخصية ملتوية لا تنتزع الحق بطريقة مباشرة كما هي الطريقة البدوية، ان القرية تستخدم الشتيمة بايقونيتها بينما المدينة تستخدمها برمزيتها. وفي الشتائم دلالات متحولة وكل واحدة تقوم في سياقها وعندما تتغير السياقات تتغير الشتائم ووظائفها.. ويروي الدكتور علي الوردي رواية مثيرة عن خطورة الشتائم في المجتمع العراقي رواية يقتل خلالها رجل زوجته وابنته لان ثمة من قال له ان قشة عالقة في كوفيته، ليكتشف في نهاية الامر فعلا ان ثمة قشة كانت عالقة في غطاء راسه الذي تحول الى رمز مقدس للشرف وبالتالي فقد فسر القشة بثلمة في شرفه، هذا سلوك بدائي ومتخلف، نعم نحن بحاجة لقراءة تستبطن دلالات الشتائم.

الدين والشتائم

وللمتخصصين بفقه اللغة وعلوم القرآن رايهم في موضوع أو ظاهرة تبادل الشتائم، وقد شاركنا الدكتور مشتاق عباس ليقول : " مذ خلق الله الإنسان، خلقه كيما يكون انسانا ، هذه الإنسانية صفة الإنسان، موصوف والصفة من غير الممكن ان تقترن بالموصوف ما لم تكتمل شرائطها في الموصوف، فمثلا اذا اكتملت شرائط الكرم في شخص لا يمكن الا ان تصفه بانه كريم فمتى نصف الإنسان بانه (انساني)؟ الجواب ياتي عبر تفكيك كلمة (انسان) التي تدل على ان الإنسان مكون من حمولتين حمولة معنوية، وحمولة مادية، هي الجسد، اما الحمولة المعنوية فهي منظومة المبادئ التي تضبط ذلك الجسد فمن التزم بتلك المنظومة يمكننا وصفه بانه (انسان) الا ان من لا ينضبط بتلك المنظومة فهو انسان حيواني، والفارق بين الحيوان والانسان ليس الجسد، انه قاسم مشترك والمميز اذن هو الحمولة المعنوية، السب والشتيمة داخلة في منظومة الاخلاق ام لا ؟ فمرتكبها هو من نوع الانسان الحيواني الذي لا ينضبط بالاخلاق، واذاكان الجواب نعم، فهو كائن انساني، اذن نحن بحاجة الى معيار اخر يميز لنا ما يدخل في تلك المنظومة وما لا يدخل ذلك المعيار هو ثنائية (القبح الحسن) فمن كان قبيحا لا يكون في تلك المنظومة، ومن كان حسنا فيدخل فيها .

وعلى ما تقدم، فقد قال تعالى (ولا تسبوا الذين كفروا) فنهى سبحانه حتى عن سب الكافرين.. لماذا؟ اذن الله لا يرضى ان يتحول المجتمع من مجتمع انساني متسامح الى مجتمع حيواني متشنج وعدواني وهو ما يعبر عنه باللامعيارية أي افتقاد المعيار في تحديد سلوكيات الإنسان الصالح ونقيضه، فتعم الفوضى في ذلك المجتمع.

ان النهي عن سب الكفار، يدعونا لاجتناب سب بعضنا فلا يجوز الغمز واللمز (ويل لكل همزة لمزة) بل يصل الامر الى النهي عن مخاطبة الآخرين بما يكرهون بدليل قوله تعالى (ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق)، وقبل ان نختم نتساءل : لماذا هذا الاهتمام بشعور الآخرين؟ والجواب ان الله خلق الخلق ليكونوا من السعداء حتى على مستوى الشعور والعاطفة وقرن الاهتمام بالاخرين بالعبادة وهو مضمون الذكر فمن يعرض عن ذلك يصاب بكآبة وتعقد نفسي بدليل قوله تعالى (ومن اعرض عن ذكري ، فان له معيشة ضنكا) أي الحرج النفسي والتأزم الروحي.

فعلينا ان نتسامح ونتعاون على البر والتقوى ونبتعد على التعاون في الاثم والعدوان فنصل الى المجتمع المثالي السعيد المترفع عن كل ما يؤذي الإنسان من لفظ، أو فعل، أو غير ذلك.